كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

المقياس: مدخل إلى الفلسفة العامة **الفئة: طلبة سنة أولى علوم اجتماعية**

المحاضرة الرابعة : الشك ونظريات المعرفة في الفلسفة الحديثة

●●فلسفة الشك في الفلسفة الحديثة:

1 ــ فلسفة الشك ونظرية المعرفة في فلسفة ديكارت (1596ــ 1650م): تفردت الفلسفة الحديثة بمقومات وأنساق لم نعهد لها مثيلا في فلسفات سابقة، لما احتوته من مسائل وقضايا غاية في الجدة والتميز، كادت تنبئ بقطع وصال تاريخي مع أنساق الفكر التقليدية، ليس لأن اللغة أضحت غير لغتهم ولا المشكلات التي أثيرت قديما خلافها ما استجد، ولكن لأن ثمة قراءات مغايرة لتاريخ الفلسفي من جهة، وكذا لأن ثمة ما يؤشر على سمة الكشف والاستحداث الجلي في بنى وأنساق الفلسفات المعاصرة، سواء في ما تضمنته الأبحاث العقلانية النظرية أو ما اتصل بمتون الفلسفات التجريبية. وقد كان 'ديكارت' أحد أبرز الأقطاب المؤسسين لصروح الفلسفة الحديثة، تميزت فلسفته بالتشكك النقدي المنهجي. إذ ليس ثمة أحد من الفلاسفة السابقين على ديكارت أو المعاصرين له قد استطاع أن يصل إلى مبدأ يقيني أو بديهي يمكن أن يتخذ منه نقطة بدء لاستنباط نتائج بديهية، وذلك لأن الأمر هو كما يقول ديكارت: ' إن جميع النتائج التي تستنبط من مبدأ بديهي لا يمكن أن تكون بديهية مهما يكن الاستنباط من حيث صورته صحيحا'. ويترتب على هذا أن جميع الاستدلالات التي أقاموها على مثل تلك المبادئ لم تستطع أن تؤدي إلى المعرفة اليقينية لشيء واحد، و لم تستطع بالتالي أن تجعلهم يتقدمون خطوة واحدة في البحث عن الحكمة"[1]. لا ريب أن العقلانية الديكارتية كانت مشبعة بالعقلانية الرياضية، وقد كان منطقيا أبلغ ما يكون الاتساق في عقل عاقل. ليس ثمة ما هو أوضح واشمل من الفطرة السليمة في نظر ديكارت، وذاك ما عرض له في كتابه مقال في المنهج، ولكن ما يفرق بين البشر هو استعماليات العقل، ' إذ لا يكفي أن يكون العقل سليما، بل الأهم من ذلك هو أن نستعمله استعمالا جيدا'[2]. ولا ريب أن تلك مسألة رهن حسن انتقاء المنهج الموصل إلى المعرفة الحقة. لأجل ذلك أقام الحجة على منطوق أفكاره وأطروحاته التي عرض لها في كتابه: 'مقال في المنهج' الذي أوثق مقولاته فيه 'مقولة الشك' تعقلا ثم مقولة البداهة تدقيقا رياضيا. فهو ولا شك على خلاف منطق أرسطو، لأنه أرسى للعلوم قواعد المنهج. ولكن كيف تبيّن لديكارت وضوح المبادئ والنتائج في قاعدته الأولى من قواعد المنهج؟ يجيب قائلا: ' من الميسور لي أن أثبت أنها واضحة جدا: أولا بالاستناد إلى النحو الذي وجدتها عليه، أعني بإطراح جميع القضايا التي عرض لي فيها وجه من وجوه الشك. إذ من المستيقن أن القضايا التي أمعنا النظر فيها ووضعناها موضع الاختبار فلم نستطع إطراحها بعد

---

[1] ــ رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، تر، محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط3، 1985، ص ص 26 ــ 27.

[2] ــ روديس لويس: ديكارت والعقلانية، تر، عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1988، ص 17.

ذلك، هي أجلى وأوضح ما يستطيع الذهن الإنساني أن يعرف. ونظرا إلى أني رأيت أن من يريد أن يشك في كل شيء لا يستطيع مع ذلك أن يشك في وجوده حين يشك. وأن ما سبيله في الاستدلال هذا النحو من عدم استطاعته أن يشك في ذاته، ولو كان يشك في ما سواه، ليس ما نقول عنه بدننا بل ما نسميه روحنا أو فكرنا ــ بهذا الاعتبار أخذت كينونة هذا الفكر أو وجوده على أنه المبدأ الأول"[3]. والحقيقة التي قصد إليها ديكارت في هذا القول تشير إلى حدين رئيسيين: حد يضع حدا لمعنى وهم الكينونة إذ يحجب عن الإنسان نور الشك ولزوميته، حيث لا تتحقق لديه الكينونة الحقة ويسلب عنه كنه التعقل والمعرفة اليقينية. وحد آخر أبلغ من سابقه إذ يشير إلى تحقق الكينونة الحقة حين نمارس الشك من جهة ما هو المبدأ الأول للعقل المفكر، والذي من خلاله يحقق لديه الكينونة الحقيقية. ولكن ديكارت يسترسل متسائلا: من أين يحص لدى الإنسان الشاك المفكر يقين وبداهة التيقن من المعارف والأفكار ارتكازا على قاعدة الشك؟ يجيب ديكارت قائلا: ' من هذا المبدأ استنبطت بكل وضوح المبادئ التالية: أعني وجود إله صانع ما هو موجود في العالم، ولما كان الله تعالى منبع كل حقيقة، فإنه لم يخلق الذهن الإنساني على فطرة تجعله يخطئ في الحكم الذي يطلقه على الأشياء التي يتصورها تصورا واضحا جدا ومتميز جدا"[4]. ومن الضرور ي الإشارة إلى دقة المنهج الديكارتي الذي استفاد كثيرا من أخطاء المنهج الأرسطي، حين اعترض ناقدا مشككا في قدرة على تحقيق كفاية العلوم من مبادئه ومقولاته وطرائقه، وخاصة الاستنتاج في المنطق الصوري الذي أضحى مقيدا بسوابق أحكام ومصادرات عمومية لا ابتكار ولا جدة فيها. ولعل ذاك ما حدا بديكارت لإقرار الشك خطوة بدء حاسمة في بناء المعرفة. " والشك كما نعلم نوعان: حقيقي مطلق، ومنهجي علمي، والأول توقف عن إصدار حكم ما وهو ما حاربه ديكارت، وأما الشك المنهجي الذي يعتبر منهجا في التفكير فهو الذي يزاوله صاحبه بإرادته إمعانا في التراهة ورغبة في البعد عن التأثر بأفكار سابقة حتى يصل العقل وحده إلى المعرفة اليقينية الصادقة"[5].

2 ــ فلسفة المنهج ونظرية المعرفة في فلسفة فرنسيس بيكون: (1561ــ 1626م) اقترنت نظرية الشك المعرفية الإبستيمية في فلسفة بيكون، التي عرض لها في مؤلفه 'الأورغانون الجديد' بالاعتراضات العلنية ضدا على الأورغانون الأرسطي، الذي أسس لاستكانة العقل وأفضت تطبيقاته إلى أوهام(*) وأخطاء بدل تحصيل الحقائق، والقصد إلى توريث

---

[3] ــ المرجع السابق نفسه، ص ص 27 ــ 28.

[4] ــ المرجع نفسه، ص 28.

[5] ــ كامل محمد محمد عويضة: ديكارت رائد الفلسفة في العصر الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ص 26 ــ 27.

(*) ــ ثمة أربعة أنواع من أوهام تحدق بالعقل البشري، وقد قيضت لكل منها اسما بغرض التمييز بينها، فأطلقت على النوع الأول 'أوهام القبيلة'... وعلى النوع الثاني 'أوهام الكهف' وعلى الثالث 'أوهام السوق'... وعلى الرابع 'أوهام المسرح'.

أوهام القبيلة (أوهام الجنس) *Idola Tribus* مبيتة في الطبيعة البشرية وفي القبيلة البشرية نفسها أو الجنس البشري نفسه، فالرأي القائل بأن حواس الإنسان هي مقياس الأشياء، إنما هو رأي خاطئ، فالإدراكات جميعا الحسية والعقلية هي على العكس منسوبة إلى الإنسان وليس إلى العالم. أما أوهام الكهف *Idola Specus* فهي الأوهام الخاصة بالإنسان الفرد، إن فرد بالإضافة إلى أخطاء الطبيعة البشرية العامة كهفا أو غارا خاصا به يعترض ضياء الطبيعة ويشوهه، وقد يحدث هذا بسبب الطبيعة الفريدة والخاصة بكل إنسان، أو بسبب تربيته وصلاته، أو قراءاته ونفوذ أولئك الذين يكن لهم الاحترام والإعجاب، أو لاختلاف الانطباعات التي تتركها الأشياء في أذهان مختلفة: في ذهن قلق متحيّر أو ذهن رصين مطمئن. أوهام

الفهم إزاء الاستباقات المعلومية التي لا طائل منها. يقول بيكون في هذا الشأن: " حتى لو اجتمعت كل العقول من كل العصور وتآزرت جهودها جميعا، فلن يتحقق تقدم كبير في العلم عن طريق الاستباقات، ذلك أن الأغلاط المتجذرة في جبلة العقل الأولى لا سبيل إلى الشفاء منها بأية جهود أو علاجات لاحقة مهما بلغت عبقريتها"[6]. إن منطلق العرض المنهجي التشككي الجديد الذي أقره بيكون على هذا النحو يقوم يؤول إلى التخلص من مفاسد العقل التي تعيق حتى العقل الناظر بالنقد لما يستبطنه المنطق الأرسطي من ضلالات، وعليه فإن "نسق المنطق الحالي يفيد في تثبيت وترسيخ الأخطاء القائمة على الأفكار السائدة، أكثر مما يفيد في البحث عن الحقيقة ومن ثمة فإن ضرره أكثر من نفعه"[7]. ولعلي ببيكون في مقرر خطابه الفلسفي هذا يقصد بجهل أرسطو بمقررات الفلسفة العلمية في مبادئها ومقوماتها، التي تفيد ـــــ إن تم تفعيلها ـــــ في تطور الأبحاث العلمية عندئذ يتأكد ـــ بالسند التاريخي ـــ أن خطاب أرسطو قد يصلح لمنطقه المنغلق ولفلسفة عصره، ولكن ما كان للمنطق بأنساقه ومناهجه أن يصلح كآلة للعلم، إذ المقاصد الكبرى لفلسفة لم تدرك بعد ثورات علمية لا يمكن أن تتحدد إلا بمجالات فلسفية وعندما تنصرف المناهج والمذاهب عن دراسة الواقع، لتتحول أفكارها وحقائقها إلى شيء من السحر والخرافة. "فإن مسائل الخرافة والسحر (بالمعنى الشائع للكلمة) ينبغي ألا نغفلها كلية فمثل هذه الأشياء مطمورة عميقا تحت ركام هائل من الزيف والخرافات ولكن يظل على المرء أن ينظر فيها قليلا، ليرى هل ثمة عملية ما تقبع كامنة في أي منها، مثلما هو الحال كي ترقى وفي تقوية الخيال، وتوافق الأشياء عن بعد، وانتقال الانطباعات من روح لروح مثلما تنتقل من جسم لجسم"[8]. لذلك " يجب ألا ننتظر في فجر المعرفة أن نصادف أفكارا واضحة وخواطر مميزة محددة... فالفكرة التي تحاول أول تفسير للكون تبدو وكأنها أقرب إلى عالم الأحلام منها إلى عالم الواقع"[9]. فلا زالت غشاوات من الظنون وغوامض الأفكار تلف العقل وتسلبه حرية النظر والـــتأمل، وإنما وقع الشك في يقين النسق المنطقي الأرسطي، لأن العلم ما آمن باليقين إلا زمن ترسخت مفاهيم أرسطو لدى العوام والخاصة من المدرسيين والمشائين. واليقين هاهنا اعتقاد وإيمان لا إدراك وتحقيق. " إن البحث عن اليقين هو الذي يجعل الفيلسوف يتجاهل دور الملاحظة في المعرفة، ولما كان يستهدف معرفة ذات يقين مطلق، فإنه لا يستطيع أن يقبل نتائج الملاحظات... فالأصل

السوق *Idola Fori* بالنظر إلى ما يجري بين الناس هناك من تبادل واجتماع، فالناس إنما تتحادث عن طريق القول، والكلمات يتم اختيارها بما يلائم فهم العامة. وهكذا تنشأ مدونة من الكلمات سيئة بليدة تعيق العقل إعاقة عجيبة... إعاقة لا تجدي فيها التعريفات والشروح التي دأب المثقفون على التحصن بها أحيانا. أوهام المسرح *Idola Theatri* ذلك أني أعتبر كل الفلسفات التي تعلمها الناس وابتكروها حتى الآن، هي أشبه بمسرحيات عديدة جدا، تقدم وتؤدى على المسرح، خالقة عوالم من عندها زائفة وهمية... وأنا لا أقصر حديثي على الفلسفات الكلية، وإنما أشمل أيضا كثيرا من العناصر والمبادئ الخاصة بالعلوم، والتي اكتسب قوتها الإقناعية من خلال التقليد والتصديق الساذج والقصور الذاتي".(فرنسيس بيكون: **الأورغانون الجديد ــ إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة**ــ تر: عادل العوا، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1)، 2013، ص ص 28 ــ 32).

6 ـــ ابن رشد: نص تلخيص منطق أرسطو 'المجلد الخامس'،(الأنالوطيقا الثانية أو البرهان)، ص 25.

7 ـــ المرجع نفسه، ص 19.

8 ـــ المرجع السابق نفسه ص، 223.

9ـــ بيار دوكاسيه: الفلسفات الكبرى، تر: جورج يونس، منشورات عويدات، بيروت ــ باريس، (ط3)، 1983، ص 12.

النفسي لكل مذهب عقلي بالمعنى الواسع، هو دافع خارج مجال المنطق"[10]. وإذا كان ذلك كذلك فإن الاعتقاد الأرسطي بيقين نتائج الاستقراء يظل اعتقادا، إذ الأصل أن الاستقراء أنسب لأبحاث العلم، وإنما كان غرض العلم ولا يزال تفسيري اختباري عالق بالخبرة، إشكالي بنيوي وليس مبادئ ونظريات معطاة لنا بالفطرة وإنّا لا نشك في أن علم العصر الحديث ليس مماثل لعلم أرسطو، ولذلك فإن "العلم معرفة، ولكن أبدا ليست نهائية، إنه مجموعة قضايا ثابتة تعبر عن البنية الإشكالية لمجموع معارفنا"[11]. انصبت قراءات "فرنسيس بيكون" النقدية في بداياتها حول العقل، واصفا إياه بالمضلل المتشبع بالأوهام، "تلك الأوهام والتصورات الزائفة التي استحوذت على الذهن البشري، وما زالت متجذرة فيه بعمق... ثمة أربعة أنواع من الأوهام تحدق بالعقل البشري،... أطلقت على الأول 'أوهام القبيلة'، وعلى النوع الثاني 'أوهام الكهف' وعلى الثالث 'أوهام السوق'، وعلى الرابع 'أوهام المسرح'. لا شك أن تكوين التصورات والمبادئ بواسطة الاستقراء الصحيح هو العلاج الناجع للتخلص من الأوهام وإزالتها[12]. وذاك ما تسبب في تعطيل تأسيس صروح العلم. قال بيكون في هذا الصدد: "الأوهام والمفاهيم الخاطئة تستولي حاليا على الفاهمة البشرية، والتي ترسخت أكثر في العقول، ليست فقط لأنها استولت على العقول من حيث كون الحقيقة قادرة على اختراق هذه العقول، لكن أيضا تعتبر هذه الأوهام والمفاهيم الخاطئة حائلا دون تأسيس العلوم، عدا في حالة إدراك الإنسان الحذر لهذا الخطر، لذا وجب عليهم تحصين أنفسهم بأبعد صورة ممكنة ضدا عن هذه الأوهام والمفاهيم"[13].

2 ــ **الشك ونظرية المعرفة في فلسفة ديفيد هيوم (1711 ــ 1776م)**: مرتكز نظرية الشك في فلسفة ديفيد هيوم قوامها هو التمييز بين ضربين من ضروب الموضوعات العالقة بأبحاث الفكر البشري: إحداها تتعلق بعلاقات الأفكار، والأخرى موصولة بالوقائع، ومحصلتهما علوم وفلسفات عديدة، والسبيل المؤدية للأولى إما بالحدس أو بالبرهان، وسبيل الثانية ليس بالحس أو بالتجربة فيما يدعيه التجريبانيون، ولكن بالخبرة الحسية (وذاك هو أصل منطق النزعة الإمبريقية). والحدود الفاصلة بين الضربين تقتضي ردها إلى أصل الأفكار ومعيارها. أما العقلانيون فناكرون لكل تأصيل بعدي (واقعي) ذلك أن أصل الأفكار ومعيارها يقينها هو المقتضيات القبلية، سواء كانت مبادئ أو مقولات أو قوانين، خلاف مذهب أنصار الخبرة الحسية ممن ردوها إلى نواتج الممارسة الحسية الممتزجة بالخبرة، ونحن نقصد إذا ذاك ردها إلى مبادئ وقوانين بعدية خالصة.

---

10 ــــ هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، تر: فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص 40.

11- *Omar Actof : Méthodologie Des Sciences Sociales est Approche Qualitative Des Organisations – Une introduction a la démarche classique et une critique –Montréal : Les Presses de L'université Du Québec, 1987, P 15 .*

12 - *Francis Bacon : Novum Organum, Nouvelle Traduction en Français, Par Loriquet, Librairie de L'Hachette et Gié, Paris, 1857, P 12.*

13 - *Ibid, P 12.*

ولما كانت أفكار العقلانيين مناهضة لما أقره ديفيد هيوم فقد أثار بخصوصها شكوك معتقدا بأن المبررات العقلانية لا تفي بالبيان والمحاجة على صدق دعواهم، لأنها لا تقبل استساغة لا عقلانية ولا واقعية. وشكك ديفيد هيوم كذا حتى في مشروعية وجدوى بعض المبادئ التي يدعي أنصارها أنها مناط التفسير والتعليل، وأخص تلك المبادئ مبدأ السببية. معتقدا بانه مبدأ ميثافيزيقي لا سبيل لإقرار مشروعيته العلمية بأي وجه من الأوجه، ولكن يسعنا تقديم مبررات مقبولة ومشروعة عن نحن جنحنا إلى مبادئ الخبرة الحسية، وأخصها مبدأ العادة النفسية. يقول هيوم في هذا الصدد: " إذا شئنا أن نرضي أنفسنا بصدد طبيعة البيّنة التي تؤمنها لنا الوقائع فيجب أن نبحث كيف نتوصل إلى معرفة السبب والأثر. ولسوف أتجرأ على القول إن القضية 'إن معرفة هذه العلاقة لا تحصل بأي حال من تعليلات قبلية بل تتولد بأسرها من الخبرة، حيث نجد أن أشياء معينة تترافق بعضا مع بعض بشكل مستمر' هي قضية عامة لا تقبل استثناء... فليس ثمة من شيء يكشف بخصائصه التي تظهر للحواس لا عن الأسباب التي تحدثه ولا عن المسببات التي يتولد منها، ولا يمكن لعقلنا البتّة ــ من دون مساعدة الخبرة ــ أن يطلع بخلاصة بصدد وجود حقيقي أو واقعة ما"[14]. إن السبب من جهة ما هو فكرة قبلية لدى انصار الاتجاه العقلي لا يسعنا إدراكه كحقيقة متجلية الأثر في الواقعة أو في الظاهرة. وأن ما يعتقده أولئك هو محض اعتقاد غير مدرك لأنه لا مرئي، ولا يمكن مشاهدته عيانيا (مسلمة ميثاقيزيقية) لا يسع العلم الواقعي إقامة البيّنة الواضحة (الموضوعية) بشأنها. يقول هيوم: " افترض أن إنسانا يتمتع بأقوى ملكات عقلية وتأملية حمل (بضم الحاء) إلى هذا العالم، إنه سيلاحظ بالفعل، على الفور، تعاقبا متصلا من الأشياء، وحادثا يتبع آخر، إلا أنه سيكون عاجزا عن اكتشاف أي شيء آخر. سيكون أولا عاجزا عن بلوغ فكرة السبب والأثر، بأي تعليل، لأن القدرات الخاصة التي بها تؤدى جميع الأعمال الطبيعية لا تظهر البتّة بالحواس... فقد يكون ترافقهما اعتباطيا. وليس ثمة من علة للاستدلال على وجود الواحد من ظهور الآخر، وبكلمة إن هذا الإنسان من دونت خبرة إضافية لن يقوم باي تخمين و لا بأي تعليل حول أي مسألة واقعية ولن يكون متيقنا من شيء سوى ما يكون ماثلا مباشرة لذاكرته وحواسه"[15]. الأصل أن إدراكاتنا ترتد إلى إحساساتنا وعند ذلك تنجلي الحقيقة، وما العقل إلا تابع منظم، مترجم، ناقل انطباعات الحس التي هي مادة الأفكار الأولى ومن دونها لا يترتب عن ذلك شيء مما يتوجب معرفته. " كل مواد التفكير هي مشتقة إما من إحساسنا الداخلي أو من إحساسنا الخارجي، وإنما إلى الذهن والإرادة يرجع مزج هذه وتركيبها. وبعبارة فلسفية، سأقول إن كل أفكارنا، وهي أضعف إدراكاتنا، هي نسخ من انطباعاتنا وهي أقوى تلك الإدراكات"[16]. قد يسأل سائل ما آية ثقة هيوم بما أقره أصلا ومعيارا لمعارفنا، وأي الأفكار أجدر بأن يأخذ بها العقل؟ وكيف تمثل هيوم ترتيب أوليات التشكيلات المعرفية من خلال ثالوث الجدل الإبستيمي (الانطباعات، الأفكار، الأشياء)؟. وما الطريق المؤدية إلى الأفكار الحقيقية؟ يجيب هيوم قائلا: " حتى استدل على ذلك فإني

---

[14] ــ ديفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، تر، موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 24.

[15] ــ المرجع نفسه، ص ص 69 ــ 70.

[16] ــ ديفيد هيوم: تحقيق في الذهن البشري، تر، محمد محجوب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص ص 41 ــ 42.

آمل أن تكون الحجتان الآتيتان كافيتين: أولا، إننا عندما نحلل خواطرنا أو أفكارنا، مهما كانت مركبة أو جليلة، نجد دائما أنها تنحل إلى تلك الأفكار البسيطة التي نسخت عن سابق شعور أو إحساس... وثانيا إذا حدث بسبب تعطل عضو من الأعضاء، أن إنسانا ما لم يكن قادرا على إحساس ما، فإننا نجد دائما أنه عاجز قليلا عن الأفكار المتعلقة بذلك الإحساس، فالأعمى لا يمكنه أن يكوّن أي فكرة عن الألوان، وكذلك الأصم عن الأصوات، فإذا ما عاد لأي منهما ذاك الحس الذي كان يعوزه، انخرق له به معبر جديد إلى إحساساته، ينخرق به كذلك ممر إلى الأفكار فلا يجد صعوبة في تصور تلك الموضوعات".

خاتمة: شك فلسفة المحدثين هي امتداد ولا شك لفلسفة القدامى، كانت على الدوام تتضمن رسالة إبستيمية وجيهة، أريد من خلالها تحقيق النماء المعرفي والتقدم الفهمي لمسارات الأبحاث العلمية والفلسفية، ثم الإحاطة بالتحويرات والتبدلات التي طرأت على محطات البحث الكشفية وهي تحاكي الضروريات العملية انطباقا مع مقتضياتها النظرية. وقد كان لنظريات الشك أثر بالغ في تقويم الأبحاث وما تضمنته من مفاهيم ومقولات ونظريات وقوانين أعيد تأسيسها على نحو أكثر موضوعية ودقة، ليترع صوب درء الخطأ والوهم على تاريخ المعارف الفلسفية والعلمية سواء.